طقس العبور في قصيدة تعبٌ كلّها الحياة لأبي العلاء المعري" مقاربة بنيوية "

The transit ritual in the poem "the entire life is tiredness " by the poet Abi Al Ala Al Maarri

د.ط مرناس مصطفى*

جامعة أمحمد بوقرة بومرداس (الجزائر)

m.mernas@univ-boumerdes.dz

د . بن ضحوى خيرة

جامعة أمحمد بوقرة بومرداس (الجزائر)

K.bendahoua@univ-boumerdes.dz

تاريخ الاستلام: 2022/08/02 تاريخ القبول 2022/09/27 تاريخ النشر 2022/10/13

ملخص:

تدور الفكرة المحورية في هذا المقال حول نظرة المعري إلى الموت والحياة من خلال فلسفة الوجود التي طالما تناولها في مؤلفاته الشّعريّة منها والنّثرية ، إلاّ أنّ هذه النّظرة كانت تحوم حولها الشّكوك ، والتي جعلت أراء النّقاد المحدثين تتفاوت وتتعارض في محاولة لإزالة اللبس والغموض كون هذه المسألة تتجاوز بعض الاعتبارات الدّينية ، إلاّ أنّ التّعمق في فكر المعريّ سيفتح لنا الكثير من المدارك تثبت بحقّ أنّ فلسفة المعري سارت في نطاق محدود يمكن تأكيدها في سياق الدّراسة التي قام بها " فان جنب " والموسومة بطقس العبور ، حيث أشارت إلى أنّ الإنسان يعيش مراحل في حياته تعتبر طقوسًا للعبور لا يمكن تجاوز أحد الطّقوس ، لذلك جاء المقال في فحواهُ مزجٌ بين تجربة المعري ونظرته

* المؤلف المراسل

الفلسفية للحياة والموت ، وبين فكرة العبور لدى فان جانب كطقس خالد يمثل أهم المحطات التي يمرّ بها الإنسان كممارسات يومية .

الكلمات المفتاحية: طقس العبور .، الوجود .، الزمن .، الموت والحياة .

Abstract: *The central idea in this article is about the view of Al-Maari on death and life through the philosophy of existence that he has long dealt with in his poetic compositions and proses, but this view has been skeptical, which has caused the opinions of modern critics to vary and conflict in an attempt to remove confusion and ambiguity, since this issue goes beyond certain religious considerations.But going deeper in Al-Maari's ideology will open us up a lot of knowledge that truly proves that Al-Maari philosophy went through a limited extent that can be confirmed in the context of the study made by "Van Jenp" which is marked by transit ritual, which pointed out that human lives stages of his life as a rite of passage that cannot exceed a ritual, so the article's content is a blend between Al- Maari's experience and his philosophical view of life and death, and the idea of crossing for "Van Jenp" as an eternal ritual representing most significant through which human goes through as a daily practice.*

Key words : transit time, existence , time , death and life.

مقدّمة:

ظلّ الشّعر العربيّ القديم فترة من الزّمن يشوبهُ الغموض واللبس نتيجة للدّراسات السّطحية التي أُجريت عليه باعتباره من الخطابات الفصيحة ، ولذلك بقيت المدّونة القديمة وخاصة الشّعريّة منها تُقرأُ في نطاق محدود إمّا لجهل الدّارسين للمناهج الحديثة أو لعدم تطبيقها تطبيقًا يتلاءم مع الفكرة التي تطرحها هذه المناهج ، ومن هنا أخذت دائرة المناهج تتوسع شيئًا فشيئًا وخاصة عندما أزيلَ الغبار مجدّدًا على الخطاب الشّعريّ القديم، وبدأت بعض النّظريات بالظّهور والتّربع على مستوى تحليل النّص الشّعري حينما أصبح النّص الأدبي مجالاً مفتوحًا على تعدّد القراءات من دارس لآخر ، ومن بين الدارسين المهتمين بالشّعر العربي القديم الباحثة الأمريكية " سوزان ستيتكيفيتش" التي برزت من خلال " نظرية الأداء التي طبقتها على مدونات من الشّعر الجاهلي والعباسي، حيث

درست مقتطفات من شعر امرؤ القيس وأبي تمام والمعري الذي أخذ حيزًا كبيرًا من دراستها التي طبقتها على ديوان " سقط الزند" وديوان " لزوم مالا يلزم "هنالك وجدت الباحثة إجابات كثيرة جعلها تكتشف ثراء الأعمال الأدبية لهذا الشّاعر لأنّها وجدت في طيات دواوينه أفكارًا قابلة للطّرح والتّجدد عبر العصور ، وأكدّت أنّ قصائد السّقط هي استجابة حقيقية لدوافع الحياة الاجتماعيّة والسّياسيّة وكذا متطلبات المجتمع .

والجدير بالذّكر أيضًا أنّ أعمال سوزان قد أضاءت جوانبَ عديدة من الأدب العربيّ القديم والحديث في وضعية تقابل وتناظر مع الثقافات الأخرى ، حتى تؤسس لمشروع أبي العلاء المعري الذي رفض فيه لمنهج القصيدة السّابقة تمثل هذا الانجاز في القافية المزدوجة التي ظهرت بصورة واضحة في اللزوميات ما جعل التّفوق والاختلاف بارزا ، وما يوحي لنا بجديّة الطروحات عند الباحثة محاولة تفسير القصيدة التّقليديّة على ضوء ما صاغه " فن جنب " من خلال طقس العبور كونه جوهر هذا المقال في محاولة لرصد المراحل الطقوسية الثلاث من خلال قصيدة " تعب كلّها الحياة " لأبي العلاء المعري ، من أجل فك شيفرات المدونة ، بدءًا بالبنية السّطحيّة وصولاً إلى اكتشاف البنية العميقة .

وفي سياق ما أشرنا إليه آنفا يتلخص لدينا جملة من التساؤلات:

- إلى أي مدى تبرز ملامح طقوس العبور في مدونة أبي العلاء المعري؟
- فيم تكمن نظرة المعري إلى الحياة والموت؟ وما علاقتها بطقس العبور؟
- أين تجسدت فكرة الوجود في قصيدة المعريّ، وما دورها في إثبات النّظرة الفلسفيّة من زاوية المعري؟

قبل الولوج في عمق التجربة الفلسفية لدى شاعرنا لابدّ من الوقوف على مفهوم كلمة طقس ، ومعنى طقس العبور عند بعض الدّارسين ، كما ينبغي أن نشير إلى المراحل الثلاث في طقوس العبور حتى يتسنى للقارئ أن يعيش تجربة الشّاعر وأن يحسّ بكلّ

خطْوة في هذا الانتقال ، وكأنّه سيعيش أحداث تأخذه تارة إلى الخيال وتارة إلى الحقيقة ، وتاره أخرى ترمي به في أيقونة الزمن للامتناهي في خطفة تُديرها عقارب السّاعة بشكلّ عكسيّ نحو الماضي انطلاقًا من وقفة الحاضر إلى المستقبل ، ثمّ العودة إلى نقطة الصفر ، بحثًا عن الخلاص بقفزة يَحذفُ فيها الشّاعر الزّمن المفقود وهنا تبدأ الرّحلة الحقيقيّة في طقوس العبور .

وحتما إنّ هذه الورقة البحثيّة التي طُرحت جاءت لأهداف وغايات واضحة مصدرها الرّغبة الجامحة في إعادة قراءة بعض الشّذرات من الشّعر القديم كنموذج يدّل على رقي اللغة الشّعريّة الموظفة في ذلك الزّمن، ومن جانب آخر تخمرت فكرة طقوس العبور نتيجة العودة إلى تجربة " سوزان ستيتكيفيتش " والذي أضاءت لنا ملامح هذا الطريق كي نضع قصيدة " تعبٌ كلّها الحياة " لأبي العلاء المعري في خط أفقي يتكون من ثلاث محطات وهو " طقس العبور " فما لمفهوم اللّغوي والمفهوم الاصطلاحي لكلمة " طقس " ؟ وهل المصطلح يختص بالأدب فقط بل يمكن أن يشمل مجالات أخرى؟ وبعبارة أخرى ماهي جذور هذه الكلمة؟

2 – معنى كلمة طقس:

يختص مصطلح الطقس عادة في علم الفلك والأنواء ليدل على حالة الجوّ المتقلبة، وقد انتقل إلى علوم أخرى فتغيّرت دلالته وأصبح معروفًا في ميدان علم الاجتماع والأنثروبولوجيا وغيرها من العلوم التي تهتم بالحياة الاجتماعيّة للإنسان ونحن في هذا المقام سوف نتحدث عن دلالة الطقس من الناحية اللغوية كما جاءت في المعاجم والقواميس العربية والغربية.

فإذا بحثنا في المعاجم العربيّة القديمة وبالتّحديد في مادة " طَقَسَ " سنجد المعاني التالية: تعني لفظة " طقس " إلى الكيفية التي يتم بها أداء الأنشطة المقدّسة وتنظيمها في إطار احتفالي، وفي الدّيانة المسيحية يقصد بها " النّظام الذي تتم به الشّعائر والاحتفالات

الدّينيّة المقدّسة " (العربية، المعجم الوسيط، 1987) وهي من العقائد المتوارثة عندهم والمعروفة في مجتمعهم.

أما في لسان العرب فإنّ كلمة طقس " في لسان العرب لابن منظور تعني " النّظام والتّرتيب، وجمع طقس طقوس والطقيساء وهي تعني مجموعة الاحتفالات " (منظور، 1994)

أما دلالة اللفظ من الناحية الاصطلاحية فإنّ الطقس مجموعة من القواعد التي تُنظَمُ بها ممارسات الجماعة ، إمّا من خلال أداء شعائرها التي تعدُّ مقدّسة أو من خلال تنظيم أنشطتها الاجتماعيّة والرّمزيّة وضبطها وفق شعائر منتظمة في الزّمان والمكان " (المحواشي، 2010) بمعنى أنّ الطقوس جزءٌ من الحياة اليوميّة للإنسان والتي تعبّر بحقّ عن صدق وواقع التّجربة المرتبطة بالفضاء المكاني والفضاء الزّماني لأيّ مجتمع ، ويذهب " فيكتور تورنر" أنّ كلمة طقس تعني تلك الطقوس التي تعبر عن انتقال شخص أو مجموعة أشخاص من مكانة اجتماعيّة معيّنة إلى مكانة اجتماعيّة أخرى أيضا " (ستيتكيفيتش، 1985) أي أنّ الطقوس مرتبطة دائمًا بحصول التّغيرات في الحالة التي يعيشها الإنسان وذلك بتغيّر الظّروف .

أمّا عبارة طقس العبور فقد ظهرت للمرة الأولى على لسان فان جنب سنة 1909 م " فكلّ إنسان يمرّ حسب نظريته بمراحل عدّة خلال حياته وتتواكب هذه التّحوّلات بطقوس مختلفة طبقًا لكلّ مجتمع فالولادة هي المناسبة الأولى لطقوس العبور تمثّل جميع هذه الطّقوس من النّاحية الشّكليّة بنية ثلاثيّة تضم حسب فان جنب المرحلة الانفصالية حيث يكون الفرد بين حالتين ، ومرحلة الاندماج حيث يكتب الفرد وضعه الجديد ، وتختلف هذه المراحل الثلاث حسب أنواع الانتقال من حالة لأخرى فردية أو جماعيّة " (ستيتكيفيتش) فحياة الإنسان عبارة عن محطّات متتابعة ومرتّبة بحسب العمر والحالة .

وهي (Rite) مشتقة من الكلمة اللاتينية (Ritus)وإذا عدنا إلى الأصل اللغوي نجد" لفظة طقس تعني مجموع الأنشطة والأفعال المنظمة التي تتخذها جماعة من خلال احتفالاتها ، كما تترجم كلمة بأنّها طقوس أو شعائر" (الشربيني، 2001)، وينبغي الإشارة إلى أنّ كلمة طقوس لا توجد في المعاجم العربيّة(Rites) القديمة ، وإنّما توجد بدلها ألفاظ قريبة تحمل دلالات دينيّة خاصة مثل " الشّعائر" و" المناسك " تشتركان في الدّلالة على أفعال العبادة والتّقرب إلى الله .

وبناءً على ما أشرنا إليه من مفاهيم لغوية واصطلاحيّة يمكننا القول أنّ الشّعائر والطّقوس هي أفعال وسلوكيات فردية كانت أو جماعيّة تنتقل من جيل إلى جيل آخر وفق نظام من القواعد والأسس الثّابتة التي تحكم الجماعة وتترسخ على مستوى ممارسات يوميّة مترجمة على شكل رموز قولية أو فعليّة حركيّة يحدث من خلالها اتّصال مباشر تطبعه المراسيم والشّعائر المعقدة، بحيث يمر كلّ طقس وفق دراما واقعية في وضعيات تفاعليّة المراد منها تجسيد أهداف وغايات راسخة متوارثة.

3 –تحليل القصيدة:

لقد قسّم " فان جنب " طقس العبور إلى ثلاث أجزاء أو ثلاث مراحل : " أولّها الفراق أي انقطاع العابر من مكانته السّابقة في المجتمع ، وثانيتها الهامشيّة أو العتبيّة أي طور انتقال يقضيه العابر على هامش المجتمع ، وهي حالة وسط بين المرحلتين السّابقة واللاحقة وفي هذه المرحلة لا يملك العابر أي مكانة اجتماعيّة معيّنة بل يعيش خارج المجتمع ، وأمّا المرحلة الثالثة فهي إعادة التّجمع أو إعادة الاندماج في المجتمع ، حيث يحرز العابر في هذه المرحلة مكانة ثابتة معيّنة جديدة " (ستيتكيفيتش، القصيدة العربية، 1985) ويبدو أنّ هذه المراحل تحدّد الوضع الاجتماعي أو الحال التي يكون فيها العابر في كلّ مرحلة من المراحل السّابقة .

مخطط رقم: 01

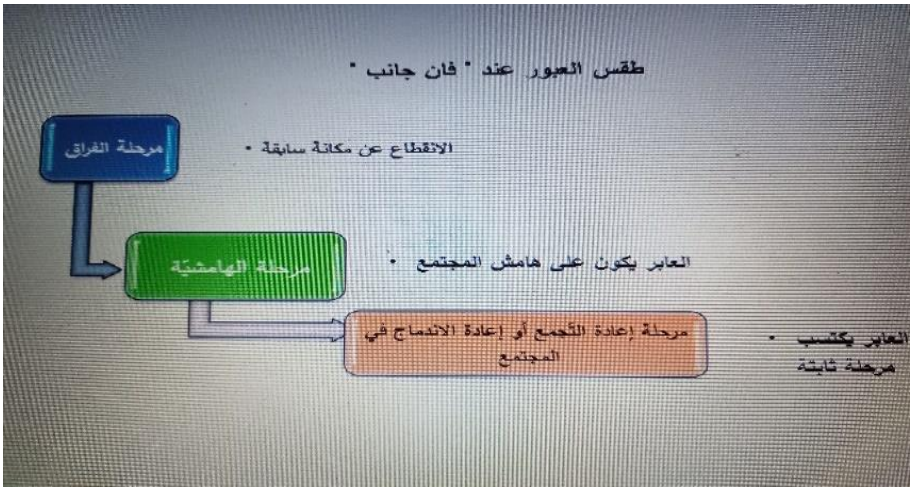

إنّ المراحل السّابق ذكرها سنحاول اكتشافها في سياق عرضنا لقصيدة " تعب كلّها الحياة " وفق مقاربة بنيوية بغية اكتشاف البنية العميقة للخطاب، وكذا إنتاج دلالات جديدة.

يقول أبي العلاء المعري:

غيرُ مُجدٍ في مِلَّتي واعـتقادِ ۞۞۞ نوحُ باكٍ ولا تَرَنُّمُ شـــادِ

وَشبيهٌ صوتُ النّعي إذا قيسَ ۞۞۞ بِصوتِ البشيرِ في كلِّ نادِ

أَبَكَـتْ تِلْكُمُ الحمامةُ أمْ ۞۞۞ غَنَّت على فرعِ غُصْنِها الميّادِ

يُبحر بنا المعري في هذه القصيدة المشهورة في رحلة بين الموت والحياة حيث يضعنا أمام فروق بين متناقضين على أنّهما حقيقية مؤكدة لا يمكن أن يكذّبها أحد منّا ، هي رحلة الموت حينما ينتقل الإنسان إلى ذلك العالم، أي؛ لحظة فراقه عن دنيا البشر إلى عالم الأموات ، ذلك العالم المختلف كلّ الاختلاف عن عالمنا الذي نعيشه ، فيذكر أنّ الحياة كالموت والغناء كالبكاء، وكأنّه يقف متعجبًا على القبور لينقل لنا رحلة الإنسان عبر طقس العبور الفاصل بين الحياة الدّنيا وحياة ما بعد الموت وهو لحظة الفراق التي يُمثلها صوت نعي الميت والبكاء عليه عند وفاته، هذا الصّوت بدوره يشبه صوت البشير الذي يُبشرُ عند ولادته ، وهنا يضعنا الشّاعر بين طقسين : طقس الولادة بمجيء مولود جديد وهي أوّل المراحل التي تمثل حياة الإنسان أي البداية ، وطقس الموت أي الفراق

الذي يعني انتهاء حياته وانقطاعه عن أحوال البشر فما علاقة صوت النعي بصوت الطفل الحديث الولادة ؟ وما علاقة الصوتين بنوح الحمامة وهي على فرع غصنها الميّادِ؟

يؤمن أبو العلاء بحقيقة الموت والحياة فيقول: مادامت عقيدتي وملّتي تذكر هذه الحقائق فَلِما النوح والعويل والبكاء؟ ما دمنا نعرف النّهاية، ومادام الموت هو أمر مؤكد يحصل لجميع البشر دون استثناء.

ها هو في هذه الأبيات يطرح الفروق بين الموت والحياة معتبرًا الحياة كالموت والغناء كالبكاء بحيث رسم لنا صورة الحياة بكل ما تحمله من بهرج ، والموت بكلّ ما يحمله من طقوس متبوعة بالنعي على حدّ تعبيره " إنّما حياة النّاس ألوان من تلك الأباطيل المحترمة كأنّها حقّ ، منها ما أجمع النّاس عليه في كلّ جيل وفي كلّ مواطن من تكريم الجثّة بعد الموت مع أنّها صائرة إلى التّغيّر والاستحالة وصائرة هباءً بعد حين ، وحرصهم على الحياة واعتزازهم بها وانخداعهم بلّذاتها واندفاعهم خلف الآمال والأماني ، كأنّهم خالدون مع أنّ الموت لابدّ منه " (حسين، 2012) وهو بذلك يضع علاقة مشابهة بين صوت النعي وصوت البشير في وضعية تقابل مع تلك الحمامة التي حيّرت عقل شاعرنا وجعلته شارد الذهن يتأمل صوتها وهو يُتمتمُ في نفسه حائرًا من حالها أهي حزينة ؟ أم سعيدة؟ ولماذا تقف على غصن الشّجرة؟ أهي تبكي أم تغني للحياة؟

يمكن توضيح العلاقات التقابليّة بـ (الحياة = الموت) و (الغناء = البكاء)

النتيجة النهائيّة: (الحياة = الغناء) و(الموت = البكاء)

التفسير: عندما يكون الإنسان سعيدًا في هذه الحياة فإنّه يلجأ للغناء للتّرويح عن نفسه، بمعنى الحياة تشبه الموسيقى العذبة التي نسمعها والغناء يدل على بهرج الحياة. في حين الموت يصاحبه البكاء ويُترجمُ بالدّموع التي تدل على الحزن والألم وفي هذا التّقابل براعة التّصوير وجمال الصّورة التي تضع القارئ في بداية الأمر في حيرة من أمره، وسرعان ما

يتعمّقً في المبنى والمعنى يجد في طيات الخطاب بذورًا فلسفيّة صادرةً عن خلفيّة اجتماعيّة مستقاة من الواقع الحقيقيّ.

وفي سياق الكشف عن طقوس العبور نلمح في الأبيات السّابقة طقسين من طقوس العبور سنمثلها كالآتي:

طقس الولادة = (الحياة) = اندماج العابر من حيز محدود إلى مجال واسع (المجتمع)

طقس الفراق = (الموت) = انقطاع العابر من مجال واسع إلى حيز محدود (القبر)

وعليه يمكن تفسير طقوس العبور في المخطط السابق وفق وضعية التقابل حسب ما جاء في القصيدة بما يلي:

نعي الميت / يقابله / صوت البشير (مولود جديد)

صوت نعي الميت وصوت البشير/ يقابله / نوح الحمامة على الغصن.

التفسير : صورة الطفل الحديث الولادة مثلتها مراسيم وطقوس تُقام تعبيرًا عن الفرحة بهذا الفرد الجديد الذي سيندمج في المجتمع مع من حوله أي أقاربه وكلّ هذا يمثّل بالحياة الدّنيا التي ترجمها الشّاعر بأنّها رحلة جديدة بالنسبة لهذا المولود ، في حين صوت نعي الميت مثله أيضا طقس الوداع والفراق للشّخص الذي يموت فهو أيضًا تقام له مراسيم الدّفن التي تعوّد عليها البشر، أما نوح الحمامة فقد جمع بين الطقسين أي طقس الولادة وطقس الفراق وبين هذين الطّقسين نجد الشّاعر في وضعية هامشية خارج المجتمع وهذا الجزء من الطقس يعبر بالنسبة للمعري عن الغموض وعدم الاستقرار أي مرحلة العزلة التي عاشها في حياته جعلته ينقطع عن دنيا البشر نهائيا مُقررًا العيش وحده وفق ما يمليه عليه منطقه وفلسفته دون أن يخالف عقيدة دينه ودون إلغاء الماضي الذي يبدو لنا مفقودا في بداية الأمر .

يواصل شاعرنا عبوره بين تلك القبور الذي امتلأت بالموتى مُتعجبًا لهذا الكم الهائل من البشر الذين يرقدون في هذه الأرض وقد تحللت أجسادهم وأصبحت رفاةً:

صاحِ هذي قبورنا تملأُ الأرض ۞۞۞ فأينَ القبور من عهد عادِ
خَفِّفْ الوطْءَ ما أظنُّ أديم الأ ۞۞۞ رضِ إلاّ من هذه الأجسَادِ
وقبيحٌ بنَا وإنْ قَدُمَ العهـ ۞۞۞ ـدُ هوانُ الآباءِ والأجدَادِ
سِرْ إنْ استَطَعْتَ في الهواءِ رُوَيْدًا ۞۞۞ لا احتيالاً على رُفاتِ العبادِ

وفي هذا الوقوف يعود بنا المتأمل إلى الزمن الغابر ويذكر لنا تلك الأقوام التي مازالت على لسان البشر اليوم يُضرب بها المثل ، إلاّ أنّه يدعوا إلى الاعتزاز بالأجداد من خلال المحافظة على رفات هؤلاء الذين صنعوا المجد والرّفعة في زمانهم الذي ولى واندثر، بالمقابل يذّمُ كلّ من يهين تلك الرّفات وإن طال بها العهد ويأمر الإنسان بأن يُخفّف المشي على هـذه الأرض التي تحمل أجسـاد الأجداد والأسلاف وهذه رسالة خالدة بأنّ الإنسان لابدّ له أن ينتقل عبر محطّات متتالية هي جزء من حياته تمثل كل محطّة طقس من طقوس العبور بدايتها المهد ونهايتها اللحد وهنا تظهر لنا القراءة الآتية

هناك علاقة وطيدة بين الحي والميت رغم الانفصال الذي يحصل بين الطرفين و رغم الانقطاع الذي يحصل من خلال الفراق ، ففي سياق الأبيات السابقة من واجب الأحياء الحفاظ على رفاة الأوائل أي الأجداد والأسلاف وكذلك الدّعاء لهم بالرحمة والمغفرة وهذه الصّلة لا تنتـهي رغم اختلاف المكان أي الحياة الدّنيا والقبر ، وهذا ما يجعلنا نُثبتُ أنّ بناء النص جاء وفق شبكة متسلسلة مترابطة من المدلولات التي فرضت الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أي من الحياة إلى الموت، كلّ هذه التّصورات كشفت الكثير من الأبعاد الفلسفية التي تُحيلنا من دون شك إلى قضية الوجود التي ارتسمت كالآتي :

مخطـــط رقم 2

قضية الوجود	الحـياة	طقس الاندماج
	مرحلة هامشية	الرحلة الصعبة (الزمن

		المفقود)
	الـموت	طقس الانفصال

وبناءً على هذه التّصورات يظهر لنا عـمق الـطرح الفلسفي الذي انتهجه شاعرنا في تفسير قضـية الوجود مما يُثبتُ بعد النّظر واتساع الفكر في معالجة مثل هذه القضايا " وأنّ الشّعر على يدّ المعري أصبح وسيلة للفكر المتأمل وبوتقة يكـسبُ فيها الوجدان وتعبيرًا مُشّعًا عن حقائق الوجود والموجود ونقدًا ساخرًا لكلّ ما يُشوههما " (الدّين، 1990)، فكم هو مثير للدّهشة أن ينقل لنا مآل ومصير تلك العظام التي مرّ عليها الدّهر داخل ظلمة القبر.

رُبَّ لحدٍ قد صار لحدًا مرارًا ۞۞۞ ضَاحِكًا من تزاحُمِ الأضدادِ

وَدَفينٌ من بـقايا دَفينٍ ۞۞۞ في طويلِ الأزمان والآبـاد (المعري، 1376 هـ - 1957 م)

إنّ هذا التّصوير لهـذه الأجساد يشبه عـصرنا الحـالي عندما امتلأت القبـور ولم يعد للموتى الجُدد مـكان فإنّ أقارب الميت يضطرون لدفن ميتهم في أحد قبور التي تحمـل نفس اللقب لأنّ المكان أصبح لا يسعُ الموتى ، فربما كلـمة ضـاحك تحتمل أمرين الأوّل حقيقيّ صدق فيه المعري ، حينما يفتح القبر عدّة مرات من كثرة من مرّ عليه من الأمـوات المتضادين في الصفات ما بين صـالح وطالح وخيّر وشرير وكريم وبخيل وكأنّه يتعجبُ لحال الإنسان ونهايته في تلك الحفرة ، وعلى أنّ أصله تراب ويـعود إلى التراب ، أمّا الأمر الثّاني : مجازي عـندما يصـبح الضّحك مـلازمًا للحزن والبكاء ، وهنا تظهر لنا فلسفة المعرّي التي تتسم بالتّضاد .

إنّ دعوة المعري الإنسان إلى التأمل في هذه الحقيقة دعوة صريحة ماهي إلاّ تأكيد لمبدأ الفناء أي الزوال الذي ينتظر كلّ موجود على الأرض، ولا يمكن لأي أحد أن يفر من هذا القدر المحتوم.

تتواصل هذه الرّحلة بعدما سأل الشّاعر هذه الأرض لأنّها امتلأت ببقايا السّابقية، يأتي لسؤال الفرقدين:

فاسألْ الفرقدين عمَّنْ أحسّا ۞۞۞ من قبـيل وآنَسَا من بِلادِ

كـمْ أقـامَا على زوالِ الأنهارِ ۞۞۞ أثَارَ المدْلِـجِ في سَوَاد

فهو خطاب غير حقيقي لأنّ المتعارف عليه في حياة البشر أنّ الأقوام اللاحقة تتساءل عن أحوال الأقوام السّالفة وليس النجم من نسـأله كي يعطينا جوابًا مقنعًا عن حياة البشر وحالهم والجـماعات التي أقامت وارتحلت قبلها وعن البلاد التي تغيرت أقوامها على مرّ الزّمن فهو فيقول: اِسألهما كم مرّة مرَّ عليـهما غروب الشّمس، وكم مرّة أنار للسّائرين الدّروب في الظّلمـات واهتدى بهما التائهون في الصّحراء السّوداء.

إنّ المتتبع لهذا الوصف سيلاحظ أنّ الشّاعر قد توغل في عمق الزّمن الغابر الذي يدّل على المدّة الطويلة التي توالت فيهـا الأقوام وارتحلت من مـكان إلى مكان تهتدي بواسطة النّجوم، وكـم من الليالي شاهدة على تلك الأقدام التي وَطئَتْ الأرض فكانت مُرَاقَبَةً من قبل النجوم وكأنّها كاميرات مراقبة.

أُنظر كيف أحسن الشّاعر نسج صورة متقابلة متناسقة من حيث المبنى والمعنى، فالمدلجُ في ظلام الصحراء يحتاج النّور الذي يُعرف به الطّريق إلى برّ الأمان، وكثيرًا ما يُفتقَدُ البدر في الليلة الظّلام، إنّها رحلة صعبة في بيـداء يكثُرُ فيها قُطاع الطّرق وكذلك الحيوانات المفترسة التي تعترض السّبيل وهو لا محالة أمرٌ مؤكد أن يموت الإنـسان فلا مفر من الهروب فالحياة عبارة عن سيناريو عنوانه شقاء وتعب فلماذا نطلب نحن البشر المزيد من شهوات وملذات الدّنيا؟ ولماذا لا نبحث عن سبل الفوز بالآخرة؟

تعبٌ كلُّها الحياة فما أعجبَ ۞۞۞ إلاّ من راغبٍ في الازدياد

فالحياة تُمثّلُ التعب والشّقاء بالنّسبة للعابر في المرحلة الهامشية، هنا يتعرض العابر في هذه المرحلة إلى خطر الموت، رغم أنّ الإنسان يبحث دائمًا عن السعادة والاستقرار ولا يهمّه المجازفة بنفسه لأنّه تعود على خشونة الطّبيعة وقساوتها.

4 –خاتمة :

بعد تتبعنا للخطاب الشّعري السّابق اتّضحت لنا معالم فكرة الوجود التي طرحها المعري، والتي كانت واضحة من خلال تتبع طقوس العبور كونها تُمثّلُ مراحل تتصل بالإنسان بشكل مستمّر ودائم في كلّ محطات حياته بدأً بالطّفولة ثمّ الشّباب وبعدها الشّيخوخة إنّها تُمّثل المنعرج الأخير قبل الانتقال إلى مرحلة مختلفة عن كلّ المراحل السّابقة وهي انقطاع الشّخص عن الحياة ومن ثمَّ يجدُ نفسه في القبر وبداخله يعيش حياةً مختلفة.

لقد مثلت طقوس العبور المراسيم والشّعائر باعتبارها أفعال وسلوكيات فرديّة أو جماعيّة انتقلت من جيل إلى جيل حتى أصبحت بمثابة القواعد الثّابتة التي بقيت راسخة في المجتمع كممارسات يومية قوليّةً كانت أم فعليّة لذلك كان من الصعب أن يتجاوز بني البشر هذه العادات التي ظلّت تضرب في أعماق المجتمع البشريّ وأخذت تتطور من حيث طبيعة أشكال الطّقوس ، بالمقابل بقي جوهرها على حاله أمّا بالنّسبة للشّاعر تظل هذه الّتصورات مُندمجة في ذاته ترتبط ارتباطًا مباشرًا بما يراهُ ويعيشه ويُلاحظهُ كموقف يُنمُ عن تجربته الخاصة إلاّ أنّ خياله الواسع سيلقي به في زمنٍ تتشابكُ فيه الألفاظ لتنسُج لنا ذلك العبور الخاطف الذي يُمثله نوعٌ من الدراما تظهر صورها على شريط الزمن في خط أفقي منتظم يسير عليه الإنسان تحت أصوات تُردُ على الأسماع تُتَرْجِمُ لنا جزءًا من حقيقة الوجود.

وفي ضوء ما سلف ذكره يمكننا القول أنّ المقاربة البنيوية في قصيدة المعري من خلال طقوس العبور شكلّت لنا مجموعة من الاعتبارات نوردها كالآتي:

1-كشفت لنا هذه القراءة البنيوية جانبًا مهمًّا من فلسفة المعريّ من خلال فكرة الوجود التي تجسدت في الثّنائية الضدّيّة أي: الموت والحياة.

2-أضاءت لنا دراسة فان جنب اتّجاهًا جديدًا في تلقي الشّعر العربيّ القديم بنظرة معاصرة.

3-في قراءتنا لقصيدة أبي العلاء رؤية تحتمل بعدين: بعد عقائدي يتمثّل في الطّقوس التي تقام للطّفل عند ولادته، وكذلك المراسيم التي تقام للميت، أمّا البعد الثّاني: فهو بعد نفسي يتمثل في أثر تلك الطّقوس على نفسيّة الممارس لهذه الطّقوس كونها جزءٌ من حياته.

4 -أفصحت هذه الدّراسة عن الرّوابط الدّلالية الخفيّة التي رسمتها القصيدة في سياق الانتقال من مرحلة إلى أخرى.

5-من خلال تطبيق طقس العبور على قصيدة المعري كشفت لنا هذه الدّراسة فلسفة جديدة في قراءة النّص الشّعري القديم من خلال الإبحار في عمق الزّمن والمكان.

6-ساهمت هذه الدّراسة من إخراج النّص الشّعري القديم من بُعد الزّمن إلى قربه وجعلت القارئ يستحضر بعض المراسيم في حياته كعادات وطقوس.

7-أبرزت لنا هذه الدّراسة أنّ النّص الشّعري القديم لا يمكن أن يبقى محصورًا في نطاق محدود كالعصر الذي كُتب فيه بل يمكن أن يساير العصر الحالي.

8-في هذه التّجربة دعوة للباحثين إلى تبني القراءة المعاصرة للخطاب الشّعري القديم كونه خطاب ثريّ يحمل في طياته سحر التّراث العربيّ – قد لا يتفطن القارئ إلى بعض الخلفيات والأنساق غير الظاهرة في النّص ذاته إلاّ عن طريق رؤية سابقة تكشف الأبعاد التي شكلت هذه الرؤيّة.

9-من خلال قصيدة المعري نستشف فلسفة نابعة من تجربة إبداعية مهما توغلنا في رحابها فإنّنا نحس بتعطش ورغبة وفضول من جديد لإعادة دراسة حقيقة هذه الفلسفة والإيديولوجيات التي أوجدتها في مدونات المعري.

10-يمثل طقس العبور رحلة متتابعة عبر محطات مختلفة تصور حياة الإنسان من الولادة إلى الوفاة.

11-قد يعتقد الباحث أنّ الثّنائيات الضدّية عيب وهفوة يقع فيها الشّاعر، ولكنها في الحقيقة سمة جماليّة فنيّة لها علاقة بالقارئ الذي يستطيع ببراعته وسعة خياله أن يبحث عن الفجوات الموجودة في الخطاب ويحاول أن يسدّها بنظرة عميقة وهذا شرطٌ من شروط العملية التّأويليّة.

12-ينبغي النّظر دائمًا إلى المدونة الأدبيّة على أنّها قابلة للتطوير في كلّ عملية قراءة تفتح حدودًا جديدة.

وفي الأخير يمكننا وضع تصور ربما سيكون في المستقبل محلّ الجدّل وظهور طروحات جديدة ألا وهو: هل يمكن أن يستمر طقس العبور ما بعد مرحلة الموت والذي يُجَسَدُ لنا في أعمالٍ أدبيّة جديدة يمثلها طقس جديد من طقوس العبور؟

الهوامش:

1 -أبي العلاء المعري. (1376 هـ - 1957 م). *شروح ديوان سقط الزند*. بيروت: دار بيروت - دار صادر.

2 - خليل شرف الدّين. (1990). *أبو العلاء مبصر بين عميان*. دار مكتبة الهلال.

3 - ستيتكيفيتش. (1985). *القصيدة العربية*.

4 - ستيتكيفيتش. (1985). *القصيدة العربية وطقوس العبور دراسة في البنية النموذجية*.

5 - ستيتكيفيتش. (بلا تاريخ). *المصدر السّابق* .

6 - سوزان ستيتكيفيتش. (1985). *القصيدة العربية وطقوس العبور دراسة في البنية النموذجية*.

7 - طه حسين. (2012). *صوت أبي العلاء*. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثّقافة.

8 - لابن منظور. (1994). *لسان العرب*. لبنان: دار صادر بيروت.

9 - لطفي الشربيني. (2001). *موسوعة المصطلحات النّفسيّة* ، (الإصدار حسين عبد الرزاق الجزائري). دار النهضة.

10 - مجمع اللغة العربية. (1987). *المعجم الوسيط*. دار أمواج للنشر والتّوزيع - بيروت لبنان .

11 - مجمع اللغة العربية. (1987). *المعجم الوسيط*. بيروت : دار أمواج للنشر والتوزيع.

12 – منصف المحواشي. (2010). *الطقوس وجبروت الرموز ، قراءة في الوظائف والدّلالات*. مجلة إنسانيات .

المراجع والمصادر:

1 –أبي العلاء المعري. (1376 هـ – 1957 م). *شروح ديوان سقط الزند*. بيروت: دار بيروت – دار صادر .

2 – خليل شرف الدّين. (1990). *أبو العلاء مبصر بين عميان*. دار مكتبة الهلال.

3 – ستيتكيفيتش. (1985). *القصيدة العربية وطقوس العبور دراسة في البنية النموذجية*.

4– طه حسين. (2012). *صوت أبي العلاء*. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثّقافة.

5 – لابن منظور. (1994). *لسان العرب*. لبنان: دار صادربيروت.

6 – لطفي الشربيني. (2001). *موسوعة المصطلحات النّفسيّة* ، (الإصدار حسين عبد الرزاق الجزائري). دار النهضة.

7 – مجمع اللغة العربية. (1987). *المعجم الوسيط*. دار أمواج للنشر والتّوزيع – بيروت لبنان .

8 – منصف المحواشي. (2010). *الطقوس وجبروت الرموز ، قراءة في الوظائف والدّلالات*. مجلة إنسانيات .